مداخلة محمد شحرور في أولى حلقات كرسي معهد العالم العربي، الذي دشن نشاطاته الفكرية في الخامس عشر من شهر مايو/أيار 2017

بسم الله الرّحمن الرّحيم

عنوان المداخلة: " آليات تحديث الفكر الإسلامي"

انطلاقا من الواقع المأساوي الذي نعيشه جراء الاعتماد على القراءة المغلوطة للدين وما انجر عنها من فكر متطرف ظلامي وأحادي رافض للآخر الذي أصبح يقدم الإسلام في صورة جد سلبية وغير مؤهلة مع التعايش مع الآخر في ظل احترام الحريات والحقوق، توصلنا إلى قناعة أساسية تتمثل في قناعتنا بأن الإصلاح في أي مجتمع، لا يمكن تحقيقه بالاكتفاء بالتمردّ على المنظومة التراثية، بل يتحقق بوضع بديل للمنهج التعليمي التربوي البالي المسيطر على عقولنا منذ قرون، إذ لا تكفي إعادة النظر في الفروع بل الأهم هو إعادة النظر في الأصول المؤسسة لفكرنا، بتقديم تعاريف جديدة وفق مبادئ معرفية معاصرة. ونورد مثالا على ذلك دراسة الطبيعة في الثقافات القديمة كانت قائمة على أنها مكوّنة من أربعة عناصر: الماء، الهواء، النار، والتراب. ولم تتقدم العلوم إلا بإعادة النظر في هذه الأصول بتطوير علوم الكيمياء والفيزياء، مع أنّ الماء هو الماء والنار هي النار... لكنّ طريقة فهم الطبيعة هي التي تغيرت وأصبحت أكثر علمية وأكثر دقة. وهذا لا يمكن الوصول إليه بتغيير أدوات المعرفة ونظامها.

إيمانا منا بأهمية ذلك، سعينا إلى وضع منهج قراءاتي معاصر للدين بالاعتماد فيه على الأرضية المعرفية المعاصرة بحثا عن مصداقية كتاب الله في الواقع المعاصر وليس في صفحات كتب التاريخ، فتوصلنا إلى نتائج أظهرت الوجه الحقيقي المشرق للإسلام وبينت لنا مصداقيته كدين إلهي عالمي يتسم بالرحمة ويستوعب كل الملل الدينية وأطيافها. من أهم هذه النتائج أن التنزيل الحكيم يبين الفرق بشكل واضح بين معنى كل من الإسلام والإيمان بحيث أن الإسلام هو دين الله ويتسم بالعالمية والشمولية لأنه يقوم على الإيمان بالله والعمل الصالح الذي يقتضي التعامل بالقيم الإنسانية، ومن هذا المنطلق فهو يعترف بكل الملل

الدينية ويجعل القيم الإنسانية هي الحاكم بين كل الملل على اختلافها، ومن هذا المنطلق فهو يتميز بقيامه على مبدأ الأحادية لله فقط وما عدا ذلك كل شيء متعدد في الوجود.

لهذا نجد التنزيل الحكيم يوضح لنا بأنه من عهد محمد (ص) إلى أن تقوم الساعة يبقى التناقض قائما بين الفكر الأحادي والفكر التعددي، مبينا أن النظام الأحادي يحمل بذور فنائه في ذاته، بينما النظام التعددي فيحمل بذور تطوره في ذاته وآليات تطوره تتمثل في مروره بالأزمات والتوصل إلى حلول لها. والتناقض بين الأحادية والتعددية يظل قائما سواء بين الدول أو في داخل الدولة الواحدة، وقد تنتصر الأحادية حتى في الدولة التعددية أحيانا وهذا ينذر بوجود أزمة خانقة في هذه الدولة. وقد تظهر الأحادية في المجتمع التعددي كحزب أو أحزاب معارضة، لكن الخطر الأكبر والأعمق عندما تكون أو تصبح الأحادية ظاهرة مسيطرة على العقل الجمعي. في هذا السياق نحتاج إلى أن ننوّه إلى أنّه بعد وفاة النبي (ص)، أوشك الصحابة بعده على تحقيق قفزة تاريخ في تطبيق التعدد في حادثة السقيفة، لكنهم لم يكونوا بعد جاهزين لهذه القفزة لهذا تم القضاء على هذه القفزة في المهد، ورجع التاريخ إلى مساره الطبيعي. أما بالنسبة للفتوحات الإسلامية فيمكننا النظر إليها من سياق التاريخ على أن هذا هو مسار التاريخ لأن الحروب هي من بين عوامل انهيار حضارات وقيام حضارات على أنقاضها.

وقد قدم لنا التنزيل الحكيم تحليلا تاريخيا لانهيار الأنظمة الأحادية كما حصل مع فرعون قوم لوط وغيرهم. كما أوضح لنا من خلال قراءتنا المعاصرة أن النبي (ص) قام بقفزات معرفية وسياسية جد معتبرة أشار إليها القرآن وتناسى التراث أغلبها، وتتلخص في أنه:

1- افتتح عصر التعددية، وذلك عند توجهه إلى يثرب لإقامة دولته فيها بحيث سماها المدينة إعلانا منه على أن دولته التي عاصمتها المدينة ستقوم على التعددية والمشاركة، لأن مصطلح مدينة يأتي هنا بمعنى (civile).

2- لغى الحق الإلهي في الحكم، وجعل مصدر الشرعية السياسية في أيدي الناس بدليل أن النبي (ص) طلب المبايعة من الناس ولم ينصب نفسه قائدا عليهم من منطلق أنه ممثل الله في الأرض.

3- افتتح عصر المساواة بين المرأة والرجل في المسؤولية والإرث والحقوق المدنية.

4- قدم بديلا للرق وهذا البديل طبق في القرن 19.

5- لغى الكهنوت الديني بإلغائه للوساطة الدينية بين الله والناس.

6- ختم التشريع الإلهي وافتتح عصر التشريع الإنساني.

هنا نحتاج إلى أن نفهم أن التشريع الذي جاء به النبي (ص) في سياق اجتهاده لتنظيم مجتمعه كقائد أعلى هو اجتهاد إنساني، وبالتالي لا يحمل الطابع الأبدي وإنما جاء على شكل قانون مدني لمجتمعه خاضع لشروط ذلك الزمان وظروفه، ولا يمكن أن يحمل صفة الإطلاق، ونحن علينا الاقتداء به ليس بتطبيق اجتهاداته بحرفيتها بل الاقتداء به بالاجتهاد لأنفسنا انطلاقا من أرضيتنا المعرفية وما الشروط الموضوعية لزماننا وتطورات الفكر الإنساني بالبحث عن مصداقية التنزيل الحكيم في الواقع لإيماننا العميق بأنه جاء ليتماشى مع تقدم الإنسانية في مسيرتها وبالتالي فهو يحمل صفة ثبات النص وحركية المحتوى. وديننا كما جاء في المصحف قد سبقنا وعلينا اللحاق به وليس العكس لأن التاريخ يسير دائما إلى الأمام وليس العكس.

ختاما ننوه إلى أن أداوات المعرفة التي اعتمدنا علينا هي التي ساعدتنا في التوصل إلى هذه النتائج والتي نسعى إلى أن نرى فيها رؤية مستقبلية لمجتمعاتنا التي هي بأمس الحاجة إلى فكر يحترم الآخر وحقوقه وحرياته لأنها منهكة من الصراعات الطائفية والنزاعات المذهبية والتطرف الذي يضرب دون رحمة كيانها ويشوه صورة الإسلام التي لا يمكن أن نرى بريقها إلا بالرجوع إلى نصوص كتاب الله.